تعليقات على الدراسات العابرة للأقاليم

[original: <http://www.jadaliyya.com/Details/37901>]

إيلا حبيبة شوحيط

ترجمة: م.ف. كَلْفَت

*[هذا المقال واحد من ست مساهمات في مائدة جدلية المستديرة تدشينا لمبادرة الشرق اللاتيني. انقر/ي* [*هنا*](http://www.jadaliyya.com/Details/37899) *لمطالعة التقديم أو اقرأ/ي المساهمات الأخرى التي كتبها* [*أمل إقعيق*](http://www.jadaliyya.com/Details/37898) *و*[*إيمان مرسي*](http://www.jadaliyya.com/Details/37903) *و*[*علی میرسپاسی*](http://www.jadaliyya.com/Details/37902) *و*[*إيلا حبيبة شوحيط*](http://www.jadaliyya.com/Details/37901)*.]*

مظاهرة خارج قصر لا مونيدا الرئاسي بسانتياغو في ٩ أغسطس/آب، ٢٠١٤، احتجاجا على الحملة العسكرية الإسرائيلية في غزة وإعلان التضامن مع الشعب الفلسطيني.

بالنسبة للمنخرطين منا في هذا الحوار القائم بين الدراسات الأمريكية اللاتينية ودراسات الشرق الأوسط، فإن المؤتمر، بالأخص هنا في سياق جامعة نيويورك، هو فرصة نرحب بها للاشتباك في رؤى ذات منظور عابر للحدود ومخيلات جغرافية تقاطعية، ومن شأنها أن تسهم في تشكيل ما يجوز أن نشير إليه باسم "دراسات عابرة للأقاليم."

أشكر المتحدثين على عروضهم التقديمية الرائعة. وفيما يلي، أود أن أدلي ببعض التعقيبات الموجزة على الإسهامات المقدمة في الأوراق البحثية، وفي الوقت نفسه كذلك بتعليقات أوسع على القضايا المنظورة في هذا الحوار العابر للأقاليم. تنخرط الأوراق في نزع الطابع الاستعماري عن المعرفة، متحدية التعريفات الجوهرانية للهوية القومية. كما تمثل الأوراق مخالفة محمودة للأعراف الإجرائية المتبعة في الدراسات المناطقية التي من شأنها أن تشجعنا على حصر تفكيرنا في الإطار الضيق الخاص بالتحليل على أسس إقليمية، المغروس دوما في صياغات تشكيل الدولة القومية. إن مبارحة تلك الرقعة ذات المعالم التي يُفترض فيها حسن التحديد لم تكن في العموم تلقى التشجيع. لكن الدراسات المقارنة (بالأخص في صورة حوار جنوب/جنوب)، وبالمثل إمكانات الربط التقاطعية، تطل على نحو متزايد في الآفاق المؤسسية الأكاديمية. وتعكس النصوص الماثلة بين أيدينا هذا الجهد المبذول للاشتباك في تحليل عابر للأقاليم، يحشد شتى المقاربات والمنهجيات، بما في ذلك الدراسات المقارنة والدراسات العابرة للقومية.

إلا أن فكرة "العابر لما هو قومي" قوبلت بالرفض أحيانا، في سياق فلسطين. على سبيل المثال، فإن تطبيق مصطلح "عابر للقومي" على فلسطين في "محور نقاشي" عُقد في ٢٠١١ بجمعية دراسات الشرق الأوسط، أحدث تململا مفهوما تماما، وربما حتميا، إذ كان يُنظَر له باعتباره ينفي "ما هو قومي". وتحديدا لأن استعمار فلسطين مشروع جاثم، فإن الاستغراق في فكرة القومية يبقى ذا حضور وثيق الصلة. وبما أن فلسطين قد طال إنكارها وطمسها، ليس فقط في النطاق العام وإنما كذلك في الأوساط الأكاديمية، فقد صار ينُظَر أحيانا لخطوة "إضفاء الطابع العابر للقومي على فلسطين" بعين الريبة. لكن الأوراق التي لدينا تقدم إيضاحا بليغا لكيف أن "العابر لما هو قومي" ليس فيه ما يدعو إلى رؤيته في إطار سردية مرحلية، كما لو أننا لابد أن نمر بما هو "قومي" لنحقق "العابر للقومي". وبالأحرى، فإن كلا منهما يدل على حالة مختلفة من تعيين المنظور ووسيط موشوري مختلف للتحليل. وأعتقد أننا قد بلغنا نقطة من الحديث تنطوي على فهم ضمني لكيف أن فكرة "العابر للقومي" يمكن التعبير عنها بالجمع بينها وبين دعاوى الأصلانية والنقد القائم الموجه للصياغة الاستعمارية-الاستيطانية التي تولد عنها الإبعاد ونزع الملكية. "النزعة العابرة للقومي" إذن ليست ببساطة اصطلاحا وصفيا على الطريقة التي ينتقل بها الناس/الأجساد، والمنتجات الثقافية، والصور/الأصوات، والأفكار، عبر الحدود القومية، وإنما هي بالأحرى موشور نفهم عبره تلك الانتقالات. والحال أن الأوراق تقدم لنا أمثلة مشرقة على هذه الحركة المرورية عبر الفضاءات الوطنية والحدود الإقليمية، والتي تنتج عنها تماهيات سياسية وانتماءات ثقافية معقدة.

وبالرغم من أن مفهوم "العابر للقوميات" بزغ في أواخر عقد ١٩٨٠ كجزء من فورة انتشاء هيمنة نيوليبرالية - ومن ثم فلا مهرب له بالكامل من القوة الجذبية التي تشده بها "الشركات العابرة للجنسيات" - فقد وُظِّف كذلك في الخطاب النقدي كجزء من العولمة من أسفل. وبهذه الصفة، فقد أفرز "الانعطافة العابرة للقومي" في العمل الأكاديمي. وقد وظف بعض العروض التقديمية على مدار المؤتمر فكرة "العابر للقومي" للإشارة إلى حركات التضامن النشطة فيما بين فلسطين وأمريكا اللاتينية في حقبة ما بعد ٦٧. إن هذه المقولة التصنيفية مفيدة ومعينة لنا في فهم تعقيد انتشار الخطابات التحررية. وفي الوقت نفسه، سيكون من المفيد أن نتذكر هنا أنه خلال الحقبة الثورية في القارات الثلاث، لم يكن مفهوم "عبور القومية" هو الرائج وإنما مفهوم "الأممية" عند اليسار، ذو المغزى الخاص آنذاك بالنسبة للنضال ضد الاستعمار والاستعمار الجديد. فليس من باب المصادفة إذن أن تستحضر ورقة طارق دعنا فكرة "الأممية"، عند سردها وقائع هذه الفترة. تؤدي "الأممية" وظيفتها هنا بمعنى مزدوج، أي تشير إلى: أ) عقد المؤتمرات والاجتماعات والبرامج التدريبية الثورية التي شكلت حرفيا حدثا عابرا للحدود، يجري في الشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية في آن معا؛ وإلى: ب) خطاب التحرر الذي كان لديه تصور عن تجاوز ما أسماه فانون "مزالق" الأيديولوجيا القومية.

وعندما يتعلق الأمر بتاريخ التضامن اللاتيني الأمريكي هذا مع فلسطين، سيكون السؤال المطروح على سائر المتحدثين هو: أين تبدأ "القومية" وتبدأ "الأممية" وأين ومتى تفسحان المجال لما بعد القومية وعبور القومية؟ من الجلي أنه كان ثمة اختلاف كبير بين النضالات المناهضة للاستعمار القائمة على الأممية ذات الأساس الطبقي وبين تلك القائمة على النزعة القومية البورجوازية. كيف يجب أن نفهم هذا التاريخ وهذه الأفكار فيما يتعلق بالتصورات المعاصرة عن التضامن الأصلاني العابر للقومي؟ وعلاوة على ذلك، فلكي نتجنب إطلاق المصطلحات في غير زمنها سيكون من المفيد أن نوضح بأي معنى نستخدم حاليا مصطلح "العابر للقومي" فيما يتعلق بهذه الأيديولوجيات الثورية القومية/الأممية. سنحتاج إلى اجتناب سَحْب "عبور القومية" بأثر رجعي على حقبة شاع فيها استخدام "الأممية" جنبا إلى جنب مع "القارات الثلاث" و"العالم الثالث" وأيضا وبوجه خاص "العروبة". وعوضا عن ذلك، يمكننا تطبيق مفهوم "العابر للقومي" كمنظور تحليلي قابل للتطبيق على حقبة كان المصطلحان السائدان فيها هما "القومية"/"الأممية".

إن موضوعة التضامن مع فلسطين تضامنا مناهضا للاستعمار تسري في الأوراق على تنوعها. وقد أبرز عرض سارة العَوَرتاني بالأخص التضامن السياسي في حالة الاستقلاليين الپورتوريكيين عن طريق الفحص المتمعن لحالة لوليتا ليبرون. وفي عمل كهذا، ينصب التوكيد على سرد أوجه التناظر البنيوية في الوضعين الاستعماريين المعنيين والأيديولوجيات المتناظرة الخاصة بالنضالات التحررية—وهي تناظرات وتوازيات تنتج النسيج الذي تعنى به دراسات نزع الاستعمار المقارنة. في حين أكد عرض نديم بَوالْصة على الصلات القائمة بين مجتمع المهاجرين - الفلسطينيين في تشيلي - ومكان/بلد نشأتهم—فلسطين. وهنا يركز فحص التضامن على إعاشة الذاكرة والانتماء لعدة أجيال إلى مواطن الأسلاف الأصلية من داخل الجغرافيا الأمريكية اللاتينية المنفوية. وفي حين أن التناظرات والروابط المعقودة من هذا القبيل لها معنى، ففي الوقت نفسه، سيكون من المعين أن نتصدى للعلاقة بين أوضاع المجتمعات المبعدة، وشخصياتها الآخذة في التبدل في السياقات المختلفة. وبما أن مجتمعا أصليا في سياقٍ ما قد يصبح جزءا من الجهاز الاستيطاني في سياق آخر، فمن الجائز أن نتحدث عما يمكن تسميته "الأصلانية العلاقية". إن استعمار ما يعرف الآن باسم "پويرتو ريكو" من قبل الولايات المتحدة، سبقه كما نعلم الاستعمار الإسپاني لشعب التاينو وجزيرته، بوريكين. فكيف تنظر شعوب تشيلي الأصلية، من قَبيل الماپوتشي، إلى المهاجرين الشرق أوسطيين، والذين قد يكون بعضهم تعاون مع أنظمة يمينية من النوع الكريه؟ وهكذا، فإلى جانب الدراسات المقارنة للصياغات الاستعمارية-الاستيطانية وحالات التضامن المترابطة بين الحركات المناهضة للاستعمار، سيكون من الضروري سواء بسواء أن نبرز الشخصيات الآخذة في التغير للمجتمعات عبر الجغرافيات. وبهذا المعنى، فإن الفلسطينيين في تشيلي أبعد من أن يكونوا فلسطينا تبدل موقعها، إذ إن الحركة عبر الحدود والتفاعلات والتقاطعات الجديدة تشكل صياغات جديدة للهوية وتماهيات سياسية معقدة قد تكون تقدمية في إحدى الحالات ورجعية في غيرها.

إن عبور الحدود إلى أمريكا اللاتينية إذ يقوم به الشرق أوسطيون لابد كذلك أن يقبل باحتمال تشكُّل هويات جديدة من خلال تفاعلات جديدة، تتشكل معها أنماط مستحدثة من التوفيق بين الثقافات. يحضرني هنا صديق أمريكي-فلسطيني تزوج من سيدة پورتوريكية، يطلق على أطفالهما "فلسطيريكيين". هذا النحت الإثني الساخر يسلط الضوء على هذا الجانب المهم من سرد العلاقة المعقدة بين الشرق الأوسط والأمريكتين، موحيا بأن الاختلاط هو كتابة على كتابة ممحوة، حتى في نطاق التاريخ الحديث. إن لفظة "تُركو" كما نعلم، هي اسم على غير مسمى يعود إلى وثائق السفر التي أصدرتها الدولة العثمانية للمهاجرين من بلاد الشام. وهذا الاسم، الذي التصق حتى بعد انحلال الدولة العثمانية، يقترن تاريخيا، كما أشار نديم، بالصور السلبية للباعة الجائلين أولا، وللساسة الفاسدين لاحقا. وقد استُخدم اللفظ أيضا للفت الانتباه إلى "الغرائبي" بوصفه صورة حسنة كما يُفترض لشرق مُغْوٍ. وقد استخدم كذلك، في بعض الأحيان، كتسمية ذاتية، أعيد امتلاكها للتأكيد على أصول متعددة الأديان والإثنيات في خلفيات المهاجرين. كانت الأفواج الوافدة المبكرة في أواخر القرن ال١٩ وبواكير ال٢٠ مؤلفة إلى حد كبير من ذوي الخلفيات المسيحية واليهودية. وقد ازدادت نسبة المسلمين بين المهاجرين في العقود الأخيرة.

لقد أصبح عبور الحدود الخاص بالبشر والتدفق متعدد الاتجاهات للميديا العالمية يمثلان عوامل في صياغات هوية جديدة عابرة للقومي. وقد تصدى عرض أمل إقعيق للمسألة البصرية في إطار أصلاني مقارن، بينما يكشف كذلك عن الجانب العابر للقومي في مثل هذا التماهي السياسي. إن مناقشة حركة الفنانين العابرة للأقاليم تبرز الطرق التي أدخلوا بها الصور المأخوذة من المكسيك وفلسطين لإفراز قاموس بصري للوحدة، خصوصا كما تجسده صور جداريات "الوجود مقاومة". فإذ يتحرك الفنانون/النشطاء عبر الحدود، يضفون دلالة جديدة على النطاق العام المسور المتمثل في إسرائيل/فلسطين والولايات المتحدة/المكسيك، عاقدين الصلة بين حالتي نزع الملكية الاستعماريتين-الاستيطانيتين المتباعدتين جغرافيا. ويمكن القول إن الدمج بين قبعات السومبريرو والكوفية يسير بموازاة نبتة الذرة وشجرة الزيتون—استعارةً وكنايةً عن الأصلانية سواء بسواء. والحال، كما يوضح عمر إمسيح تِسْدِل، أن أنماط الفلاحة الأصلانية أصبحت وسيلة ناجعة لتشكيل التطلعات السياسية المتشابكة في فلسطين والمكسيك. يتولد عن تناسج الرموز الأصلانية نوع من التهجين البصري يبرز التدفقات الثقافية عبر الأقاليم. وإذ يفعل التضامن ذلك، فإنه لا يعود مؤطرا بوصفه يعمل بين تاريخين/جغرافيتين متباينتين؛ ففي حالات كهذه، تصبح فلسطين مجازا للمقاومة فيما وراء الموقع الفعلي لفلسطين.

أود الآن أن أعود إلى النقطة المتعلقة بتاريخ أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط. لقد اقتُرح هنا أنه كان ثمة تضامن فعلي مع فلسطين في سائر حركات العالم الثالث الثورية، لم ينحصر التعبير عنه في أوساط المثقفين في أمريكا اللاتينية وإنما جاء كذلك من أفريقيا وآسيا. وبهذا المعنى، فالحال أن التضامن الأمريكي اللاتيني/الفلسطيني يعمل في متصَل ثوري. وفي الوقت نفسه، هناك خصوصية لحالة أمريكا اللاتينية في علاقتها بالشرق الأوسط، ترجع إلى شبه جزيرة إيبيريا ودورها الحاسم في تشكيل أمريكا اللاتينية. إن "عامي ١٤٩٢"، ونعني بذلك [نهاية] حروب الاسترداد و[بداية] الغزو الإسپاني - كما حاجج روبرت ستام وأنا في كتابنا Unthinking Eurocentrism (1994) [طبعة عربية قيد الصدور: إيلا شوحيط/روبرت ستام، ترجمة وتقديم: ربيع وهبة، «المركزيّةُ الأوربيّةُ بين المسلَّمات والتفكيك» (بيروت: منشورات الجمل)] - يشكلان معا كناية عن سلسلة من العمليات التاريخية المتداخلة، بما يشمل: استعمار العالم "الجديد"؛ وقرارات طرد اليهود والمسلمين؛ ومحاكم التفتيش لملاحقة المارانوس والموريسكيين؛ وتجارة العبيد العابرة للأطلنطي. وبهذا المعنى، فإن العالم بكامله ما زال يعيش في ظل تلك اللحظة الطوفانية التي اجتاحت العالم في ١٤٩٢. وفحص الروابط الخطابية بين عامي ١٤٩٢ يكفل لنا طريقة قائمة على أسس تاريخية لإعادة حكي قصة المركزية الأوروپية بالتعبيرات الاستشراقية والاستغرابية عنها، بنوع من التوكيد مختلف اختلافا طفيفا عن الطريقة التي رواها بها إدوارد سعيد (Orientalism, 1978[؛ «الاستشراق»، ١٩٨١، ترجمة كمال أبو ديب؛ ٢٠٠٦، ترجمة محمد عناني]) ومن بعده بمدة والتر مغنولو (Walter Mignolo, The Idea of Latin America, 2005). وحتى قبل كولمبس، كان الغزو الإسپاني نفسه بالفعل، كما اقترحت في موضع آخر، يعيش على أفكار "الاستشراق الأوّلي" الخاصة بحروب استرداد إيبيريا. ويمكننا أن نرى كولمبس، بهذا المعنى، بوصفه المستشرق الأول، حتى بمعنى تخيله لنفسه ظانا أنه بالفعل **في** "أرض الخان الأكبر" المشرقية. (Shohat, “Area Studies, Gender Studies, and the Cartographies of Knowledge,” *Social Text* 72, Fall 2002) عولَم كولمبس الاستشراق عن طريق ربط جزر الهند الغربية وجزر الهند الشرقية. وإذ مكنتها الأرض والثروة المادية المسروقة من الأمريكتين، فإن أوروپا والأوروپات الجديدة التابعة لها عبر المحيطات، استعمرت تبعا لذلك شمال أفريقيا والشرق الأوسط كفاتحة لاستعمار أغلب العالم.

إن المخيلة الأمريكية اللاتينية تشكلها بعمق علاقتها المتذبذبة بإيبيريا، والتي يمكننا رؤيتها بوصفها نوعا من "لا/وعي سفاردي/موري لأمريكا اللاتينية". (Shohat, “The Sephardi-Moorish Atlantic: Between Orientalism and Occidentalism,” in Evelyn Alsultany and Ella Shohat’s *Between the Middle East and the Americas: The Cultural Politics of the Middle East in the Americas*, 2013). وتسمح لنا فكرة "الاستشراق المَداري" بأن نقرأ المخيلة الأمريكية اللاتينية عن الشرق على خلفية لا/وعي موري/سفاردي، مبرزين على هذا النحو الروابط التاريخية والخطابية والثقافية الإيجابية عبر الأطلنطي بين "المشرق" و"المغرب"، بل وكذلك اضطرابات القلق والتوتر التي أثارتها مثل هذه الروابط. فبالمعنى السلبي، تُرى إيبيريا بوصفها موقعا لوثته "الدماء المورية" يفسر التخلف التنموي في مواجهة الشمال. ولكن في الوقت نفسه، فإن التراث الإيبيري هو موقع يتسم بالمرونة الرومانسية يفسر غياب الرهاب إزاء اختلاط الأجناس، على نقيض الشمال. (Shohat/ Stam, “Tropical Orientalism: Brazil’s Race Debates and the Sephardi-Moorish Atlantic” in Paul Amar (ed.) *The Middle East and Brazil: Perspectives on the New Global South, 2014*). في سرديات كهذه، لعبت شخصية الموري-السفاردي دورا مهما في الرواية الشرقية عن هوية أمريكا اللاتينية - سلبا أم إيجابا - حتى قُبيل وصول التركو. وهنا كان وضع اللاتيني مقابل الأنجلوساكسوني يناظر الفكرة الڤِيبِرية الخاصة بالشمال مقابل الجنوب، ولكنه في منتهاه لا يعكس إلا التشكيلين المتولدين بالإسقاط الأيديولوجي والمتمثلين في اللاتينية والأنجلوساكسونية. (Robert Stam/Ella Shohat, *Race in Translation: Culture Wars Around the Postcolonial Atlantic*, 2012).

تتعلق نقطتي الأخيرة باسم آخر على غير مسمى. فتماما كما أن "الشرق الأوسط" مصطلح إشكالي بشدة - "أوسط" بالنسبة إلى أي نقطة إطلال جغرافية؟ - كذلك مصطلح "أمريكا اللاتينية". فبالنسبة إلى مؤتمرنا، يستدعي مفهوم "اللاتيني" فكرة "جنوب العالم" في تعارض ضمني مع "الشمال" الإمپراطوري. غير أن المصطلح، في الوقت نفسه، يكرِّس تاريخ أمريكا اللاتينية الاستعماري-الاستيطاني نفسه. وبوصفه مصطلحا أوروپي الاشتقاق فإنه يشطب ضمنيا الثقافات الأصلية والأفريقية إذ يعكس صوغ مفهوم للأمريكتين بوصفهما معرّفتين حصرا في مقابل العالم الإسپاني والبرتغالي. وعلى خلاف أغلب العالم الثالث/جنوب العالم، فإن أمريكا اللاتينية تشكلت بواسطة الاستعمار الاستيطاني ذي الهيمنة الأوروپية. ومقاومة الإمپريالية الأمريكية مهما أصابت، فإنها أحيانا تتحاشى مواجهة تكرُّس وجود أمريكا اللاتينية نفسها في صياغات تخص دولا استيطانية استعمارية. من الضروري إذن ألا نكتفي بصوغ مفهوم الأصلانية على نحو مقارن وإنما أن نصوغه كذلك على نحو علاقي، محددين موضعه تاريخيا وسياسيا في شتى سياقاته؛ تبدُّل معانيه بحسب من الذي يدعيه لنفسه وفي مواجهة من.